المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254
العـــدد 18 A آب 2025
No.18 A August 2025

الظاهراتية وامتدادها في الدراسات الفلسفية للوعي

م.م تمارة ثائر عبد المهدي
جامعة القادسية /كلية التربية / قسم التاريخ
رقم الهاتف : 07857929120

المستخلص

تُظهر الظاهراتية مسارًا فلسفيًا مميزًا انطلق مع هوسرل باعتبارها منهجًا وصفيًا يهدف إلى العودة إلى الظواهر كما تُعطى في التجربة المعاشة، مركزًا على القصدية والوعي . غير أنّ هذا المنهج تطوّر لاحقًا ليتحول إلى أداة لفهم الوجود الإنساني ذاته، كما يتجلى ذلك عند هايدغر الذي جعل من الظاهراتية أنطولوجيا أساسية للكشف عن معنى الكينونة، وسارتر الذي وظّفها لتوضيح الحرية والوجود وميرلو-بونتي الذي أبرز البعد المتجسد للإدراك. وامتد تأثير الظاهراتية إلى الدراسات الفلسفية للوعي المعاصر، حيث أصبحت مرجعًا رئيسيًا لفهم طبيعة الخبرة الذاتية وعلاقتها بالعالم. وفي هذا السياق، أعاد ديفيد جالمرز إحياء البعد الظاهراتي عبر طرحه للمشكلة الصعبة للوعي، مؤكدًا أن التجربة الذاتية (الكيفيات المعاشة) لا يمكن اختزالها في التفسيرات العصبية أو الوظيفية، بل تتطلب اعترافًا باستقلاليتها. وبذلك، مثّلت الظاهراتية جسرًا بين التحليل الفلسفي التقليدي للوعي والبحث المعاصر في فلسفة العقل، لتغدو تيارًا أساسيًا يسعى إلى الجمع بين دقة الوصف الفلسفي وعمق التساؤل الأنطولوجي، وبين الطابع المعرفي للوعي وأفقه الوجودي المفتوح.

الكلمات المفتاحية : الظاهراتية ،الوعي ، هوسرل،القصدية، التجربة المعاشة، الذات والموضوع

Phenomenology and Its Extension in Philosophical Studies of Consciousness

A.L .Tamara Thaaer Abd Almahdi
University of Al-Qadisiyah / College of Education / Department of History
Phone numper 07857929120 :

Abstract

Phenomenology presents a distinctive philosophical trajectory that began with Husserl as a descriptive method aimed at returning to phenomena as they are given in lived experience, focusing on intentionality and consciousness as the field of appearance. However, this method later developed into a tool for understanding human existence itself, as in Heidegger, who transformed phenomenology into a fundamental ontology for uncovering the meaning of Being; Sartre, who employed it to clarify freedom and existence-for-itself; and Merleau-Ponty, who emphasized the embodied dimension of perception .The influence of phenomenology extended into contemporary philosophical studies of consciousness, where it became a key framework for understanding the nature of subjective experience and its relation to the world. In this context, David Chalmers revived the phenomenological dimension through his formulation of the “hard problem of consciousness,” insisting that subjective experience (qualia) cannot be reduced to neuroscientific or functionalist explanations but requires recognition of its irreducible character .Thus, phenomenology has served as a bridge between traditional philosophical analysis of consciousness and contemporary inquiries in philosophy of mind, becoming a central current that combines rigorous descriptive analysis

with profound ontological questioning, linking the epistemic dimension of consciousness with its open existential horizon .

Keywords: Phenomenology, Consciousness, Husserl, Intentionality, Lived Experience, Self and Object

المقدمة

تُعدّ الظاهراتية واحدة من أهم التيارات الفلسفية التي ظهرت في مطلع القرن العشرين، إذ مثّلت منعطفًا منهجيًا ومعرفيًا في التفكير الفلسفي الغربي. فهي لم تُقدَّم كمجرد مدرسة من مدارس الفلسفة، بل كـ مشروع شامل لإعادة تأسيس الفلسفة على أسس جديدة تنطلق من الوعي والخبرة المعاشة، باعتبارهما المجال الأصلي الذي تتجلى فيه كل المعاني. ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن الظاهراتية قد مثّلت استجابة مزدوجة: فمن جهة، كانت محاولة للتجاوز النقدي للنزعات الوضعية والعلموية التي سادت الفكر الغربي في القرن التاسع عشر، ومن جهة أخرى كانت سعيًا لرد الاعتبار للذات الإنسانية بوصفها قطبًا أساسياً في تشكّل العالم والمعرفة.

لقد انطلقت الظاهراتية مع إدموند هوسرل الذي دعا إلى العودة "إلى الأشياء ذاتها"، أي إلى الخبرة كما تُعاش في صورتها المباشرة قبل أن تُفسَّر أو تُؤطر في قوالب نظرية مسبقة. فبدلًا من الانشغال بالميتافيزيقا التقليدية أو التحليلات النفسية الاختزالية، وضع هوسرل الوعي في قلب التحليل الفلسفي، باعتباره مجالًا أصيلًا يُعطي العالم معناه. هذا التحول جعل من الظاهراتية مشروعًا فلسفيًا لا يقتصر على وصف الوعي، بل يسعى إلى الكشف عن بنية التجربة الإنسانية بما تحمله من قصدية ودلالات وكيفيات.

ومع انتشار أفكار هوسرل وتطورها على يد تلامذته ونقّاده، أخذت الظاهراتية أبعادًا جديدة تجاوزت حدود المنهج الوصفي الأولي. فقد تحوّلت عند هايدغر إلى أداة لفهم الوجود نفسه من خلال تحليل "الوجود-في-العالم"، واتخذت عند ميرلو-بونتي بعدًا أنطولوجيًا-جسديًا عبر التركيز على دور الجسد في عملية الإدراك، بينما استثمرها سارتر في بناء فلسفة الحرية والوعي بالذات. وهكذا، لم تظل الظاهراتية مجرد منهج معرفي، بل تحوّلت إلى إطار فلسفي متعدد الأبعاد أسهم في صياغة أسئلة جديدة حول الإنسان، والعالم، والوجود.

لكن القيمة الكبرى للظاهراتية لم تتوقف عند حدود الفلسفة القارية في القرن العشرين، بل امتدت تأثيراتها إلى النقاشات المعاصرة في فلسفة العقل والوعي. فالمشكلة الصعبة للوعي، كما صاغها ديفيد تشالمرز، أظهرت الحاجة إلى الاعتراف بالبُعد الذاتي للخبرة الذي يصعب اختزاله إلى تفسيرات فيزيائية أو عصبية محضة. وهنا وجدت الأوساط الفلسفية والعلمية في الظاهراتية منبعًا غنيًا لفهم طبيعة الوعي والإدراك، نظرًا لتركيزها على التجربة المعاشة وتحليلها الدقيق لبنية الوعي القصدية. لقد كان للظاهراتية دور محوري في إعادة تشكيل النقاش حول العلاقة بين العقل والجسد، بين الذات والعالم، وبين الإدراك والتجسد.

إن امتداد الظاهراتية في فلسفة الوعي يتجلى في نقطتين رئيسيتين: أولًا، في كونها أعادت الاعتبار للطابع الكيفي والذاتي للخبرة الإنسانية، وهو ما مهّد الطريق أمام تيارات مثل الإدراك المتجسد (embodied cognition) والفينومينولوجيا المتطبعة (naturalized phenomenology). وثانيًا، في كونها وفّرت لغة فلسفية ومنهجًا تحليليًا يُتيح للعلوم العصبية والبحوث النفسية الاستفادة من الوصف الدقيق للتجربة، بما يساعد على بناء جسر بين الفلسفة والعلوم.

ومن ثمّ، فإن دراسة الظاهراتية وامتدادها في فلسفة الوعي ليست مجرد محاولة لتتبع تاريخ تيار فلسفي، بل هي بحث في الإسهام الفلسفي المتجدد الذي يضع التجربة الإنسانية في قلب النقاش، ويمنح فلسفة الوعي أبعادًا أكثر عمقًا وإنسانية. إن هذا البحث يسعى إلى الكشف عن الكيفية التي انتقلت بها الظاهراتية من كونها مشروعًا لوصف الوعي إلى أن تصبح مرجعًا لا غنى عنه في النقاشات المعاصرة حول طبيعة الإدراك

والوعي، وذلك عبر تحليل المساهمات الأساسية لفلاسفة الظاهراتية الكبار، ثم تتبع الامتداد المعاصر لهذا التيار في الدراسات الفلسفية للوعي.

المبحث الاول : ١- ماهي الظاهراتية (الفينومينولوجيا)

تُعدّ الظاهراتية أو الفينومينولوجيا (Phenomenology) أحد أبرز التيارات الفلسفية التي ظهرت في مطلع القرن العشرين، وقد شكّلت منعطفًا مهمًا في مسار الفلسفة الحديثة. فهي لم تُطرح كمجرّد مذهب فكري محدود، بل كمنهج فلسفي شامل هدفه تحليل الخبرة الإنسانية كما تُعاش وتُعطى مباشرة للوعي. غير أنّ فهم الظاهراتية يقتضي بداية الوقوف عند معناها اللغوي والاصطلاحي، قبل الانتقال إلى تحديد موقعها بين المناهج الفلسفية الأخرى.

المعنى اللغوي للظاهراتية

من الناحية اللغوية، تتألف كلمة "فينومينولوجيا" من مقطعين يونانيين:

فِينُومِينُون (Phainomenon): وتعني "الظاهرة"، أي ما يظهر أو يُعطى للعين أو الوعي بشكل مباشر.

لُوجُوس (Logos): وتعني "العلم" أو "الدراسة" أو "القول المنظم".

وعليه فإن "الفينومينولوجيا" تعني حرفيًا: علم الظواهر أو دراسة ما يظهر كما يظهر. والظاهرة هنا لا يُقصد بها مجرد حدث طبيعي أو موضوع خارجي، بل كل ما يتجلى في حقل الوعي الإنساني من معطيات وتجارب ومعانٍ. وهذا المعنى اللغوي يكشف عن جوهر المشروع الظاهراتي، الذي يسعى إلى وصف ما يظهر للوعي وصفًا دقيقًا دون افتراضات مسبقة أو تفسيرات خارجية.

المعنى الاصطلاحي للظاهراتية

أما اصطلاحًا، فالظاهراتية هي منهج فلسفي يدرس الخبرة الإنسانية من الداخل، أي كما تُعاش في لحظتها الأصلية، لا كما تُفسَّر من الخارج. فالمهمة الأساسية للظاهراتية تكمن في "العودة إلى الأشياء ذاتها"، أي العودة إلى التجربة كما تُعطى للوعي بشكل مباشر قبل أن تُشوهها التأويلات الميتافيزيقية أو التفسيرات العلمية الاختزالية.

وقد صاغ إدموند هوسرل (1859–1938)، مؤسس الظاهراتية، هذا التوجه عبر دعوته إلى تعليق الأحكام المسبقة (epoché)، وإيقاف كل افتراضات العالم الخارجي مؤقتًا، من أجل التركيز على كيفية حضور الظواهر في مجال الوعي. بهذا المعنى، لا تنشغل الظاهراتية بإثبات وجود الأشياء أو نفيها، بل بوصف طريقة ظهورها للذات. ومن هنا اعتُبرت الظاهراتية علم البنية القصدية للوعي، حيث يُفهم الوعي دومًا على أنه "وعي بشيء ما".

خصوصية المنهج الظاهراتي

يتميز المنهج الظاهراتي بكونه وصفيًا لا تفسيريًا؛ فهو لا يبحث في الأسباب المادية أو النفسية للظواهر، وإنما يصفها كما تُعطى في التجربة المعاشة. وهذا ما يجعله مختلفًا عن مناهج أخرى كالتحليل النفسي أو الوضعية العلمية. فبينما ينظر التحليل النفسي إلى الخبرة بوصفها انعكاسًا لدوافع لاواعية، وتنظر الوضعية إليها كوقائع قابلة للقياس، تسعى الظاهراتية إلى الإمساك بـ جوهر الظاهرة كما تظهر للوعي مباشرة.

إن تعريف الظاهراتية يبرز كذلك طابعها المزدوج: فهي من جهة منهج معرفي يروم وصف بنية التجربة الإنسانية، ومن جهة أخرى مشروع فلسفي مفتوح أُعيدت صياغته وتطويره في اتجاهات متعددة على يد هايدغر، وسارتر، وميرلو-بونتي وغيرهم. لكن على الرغم من هذا التنوع، ظل التعريف الأساسي للظاهراتية مرتبطًا بكونها "العلم الفلسفي الذي يدرس الوعي وظواهره كما تُعطى للخبرة المعاشة".

إن الوقوف عند المعنى اللغوي والاصطلاحي للظاهراتية لا يمثل مجرد تمرينًا مفاهيميًا، بل يكشف عن القيمة الكبرى لهذا التيار في سياق النقاش حول الوعي. فحين تُعرّف الظاهراتية بأنها "علم الظواهر كما

تُعطى للوعي"، فهذا يعني أنها تُعيد الاعتبار للتجربة الذاتية كمنطلق أساسي لأي دراسة حول العقل والإدراك. ومن ثمّ، يشكل هذا التعريف المدخل الطبيعي لفهم امتداد الظاهراتية في فلسفة الوعي المعاصرة، حيث لا يُنظر إلى الوعي كمعطى بيولوجي فقط، بل كخبرة حيّة تُعاش من الداخل.

٢- الأصول الفلسفية للظاهراتية

لم تنشأ الظاهراتية فجأة في مطلع القرن العشرين مع إدموند هوسرل، بل جاءت امتدادًا لمسار طويل من التحولات الفلسفية التي سبقتها. فهي تستند إلى أصول معرفية ومنهجية متجذرة في الفلسفة الحديثة، كما تتقاطع مع قضايا إبستمولوجية وأنطولوجية عالجها كبار الفلاسفة منذ ديكارت وحتى كانط وهيغل، وصولًا إلى برينتانو الذي شكّل الجسر المباشر المؤدي إلى هوسرل. إن فهم هذه الأصول الفلسفية يُعدّ شرطًا أساسيًا لفهم طبيعة المشروع الظاهراتي وأهدافه.

ديكارت والشك المنهجي

يُعتبر رينيه ديكارت (1596-1650) من أبرز المصادر الفلسفية للظاهراتية. فقد وضع أساسًا للعودة إلى الذات باعتبارها نقطة انطلاق للفكر الفلسفي من خلال منهجه القائم على الشك المنهجي. فديكارت لم يسعَ إلى إثبات الحقائق انطلاقًا من العالم الخارجي، بل بدأ بالشك في كل ما يمكن الشك فيه، إلى أن وصل إلى يقين لا يقبل الدحض هو: "أنا أفكر إذن أنا موجود". هذا التركيز على الوعي باعتباره المعطى الأولي واليقيني شكّل منبعًا أساسيًا لتوجه هوسرل نحو اعتبار الوعي نقطة البداية لكل تحليل فلسفي.

كانط والفينومينا والنومينا

إيمانويل كانط (1724-1804) شكّل هو الآخر ركيزة محورية للظاهراتية، خصوصًا من خلال تمييزه بين الظواهر (Phenomena)، أي الأشياء كما تُعطى لنا من خلال الحواس في إطار مقولات العقل، والشيء في ذاته (Noumenon) الذي يظل عصيًا على المعرفة المباشرة. هذا التمييز أرسى أساس التفكير في "ما يظهر للوعي" باعتباره موضوع الفلسفة، وهو ما سيطوره هوسرل لاحقًا. غير أنّ هوسرل، بخلاف كانط، لم يسلّم بوجود "شيء في ذاته" خلف الظواهر، بل جعل الظاهرة ذاتها مجال التحليل الفلسفي المباشر.

هيغل والجدل الظاهراتي

أما جورج فيلهلم هيغل (1770-1831)، فقد ترك أثرًا آخر يتمثل في كتابه فينومينولوجيا الروح، حيث سعى إلى تتبّع تطور الوعي عبر مراحل جدلية وصولًا إلى الوعي المطلق. ورغم أن هوسرل رفض الطابع الميتافيزيقي والجدلي لفلسفة هيغل، فإن اهتمام هيغل بالوعي وتجلياته في التاريخ والثقافة وفّر خلفية مهمة لمفهوم "الظاهرة" كحقل لتجلّي الوعي الإنساني.

برينتانو والقصدية

يُعتبر فرانز برينتانو (1838-1917) الأب المباشر للفينومينولوجيا، فقد قدّم مفهومًا أساسيًا سيبني عليه هوسرل مشروعه، وهو مفهوم القصدية (Intentionalität). يرى برينتانو أن سمة الوعي الجوهرية هي أنه دائمًا "وعي بشيء ما"، أي أنه يتجه نحو موضوع محدد ولا يوجد في فراغ. هذه الفكرة فتحت الباب أمام هوسرل للتركيز على العلاقة الأصيلة بين الذات والموضوع، وجعلت من القصدية حجر الزاوية في التحليل الظاهراتي للوعي.

التقليد الوصفي في الفلسفة الألمانية

إلى جانب هذه الجذور الكبرى، استفاد هوسرل أيضًا من تقليد فلسفي ألماني قائم على التحليل الوصفي الدقيق للتجربة. فقد تأثر بمدرسة الوصف النفسي التي سعت إلى دراسة الظواهر النفسية كما تُعطى مباشرة للخبرة.

هذا التوجه الوصفي كان بمثابة أرضية منهجية لولادة الظاهراتية باعتبارها علمًا وصفيًا للوعي وظواهره، لا تفسيرًا سببيًا لها.

يتضح مما سبق أن الظاهراتية لم تكن انبثاقًا معزولًا عن التراث الفلسفي، بل كانت ثمرة لتراكمات متعددة: من ديكارت أخذت مركزية الوعي والعودة إلى الذات، ومن كانط التمييز بين الظواهر والشيء في ذاته، ومن هيغل الوعي التاريخي وتجلّيه، ومن برينتانو مفهوم القصدية. وقد أعاد هوسرل صياغة هذه الأصول في مشروع فلسفي متماسك يسعى إلى تأسيس الفلسفة كـ "علم صارم"، يقوم على وصف الظواهر كما تُعطى في الوعي، ويُمهّد الطريق لامتدادات الظاهراتية في تحليل الوعي والوجود.

٣ـ الظاهراتية عند هوسرل :

يُعتبر إدموند هوسرل (1859–1938) المؤسس الفعلي للظاهراتية بوصفها منهجًا فلسفيًا قائمًا بذاته. فقد سعى إلى بناء فلسفة علمية صارمة لا تعتمد على الميتافيزيقا التقليدية، ولا تنحصر في الوضعية الطبيعية، بل تنطلق من تحليل الوعي ذاته وما يحتويه من تجارب وظواهر. لقد مثّل مشروع هوسرل محاولة لإعادة تأسيس الفلسفة على أسس جديدة، تُعيد الاعتبار للذات والوعي باعتبارهما المجال الأصلي لكل معرفة ممكنة.

مشروع الفلسفة كعلم صارم

انطلق هوسرل من قناعة أساسية أن الفلسفة، إذا أرادت أن تحافظ على طابعها كمعرفة عقلية أصيلة، لا بد أن تُمارس باعتبارها علمًا صارمًا. وهو يقصد بذلك أن الفلسفة يجب أن تمتلك منهجًا واضحًا وقابلًا للتطبيق، مثلما هو الحال في العلوم الطبيعية والرياضية، لكن مع الحفاظ على خصوصيتها في دراسة الوعي. ومن هنا، جاءت الظاهراتية باعتبارها المنهج القادر على تحقيق هذه الصرامة من خلال العودة إلى الظواهر كما تُعطى مباشرة للتجربة.

مبدأ العودة إلى الأشياء ذاتها

يُعدّ شعار هوسرل الأشهر: "العودة إلى الأشياء ذاتها" (selbst den Sachen zu Zurück) التعبير الأوضح عن منهجه. فالمقصود بالأشياء هنا ليس الأشياء المادية في العالم الخارجي، بل الظواهر كما تظهر في مجال الوعي. إن مهمة الفيلسوف ليست تفسير الظواهر أو تأويلها وفق نظريات مسبقة، بل وصفها كما تُعاش في خبرة مباشرة. وهذا الوصف يشكّل الخطوة الأولى نحو الإمساك بـ جواهر التجربة، أي البنى الثابتة التي تجعل الخبرة ممكنة.

الرد الفلسفي (الإبوخي)

لكي يتمكن الفيلسوف من وصف الظواهر وصفًا نقيًا، دعا هوسرل إلى ممارسة ما يُسمى بـ الرد الفلسفي أو الإبوخي (Epoché)، أي تعليق الحكم على وجود الأشياء الخارجية مؤقتًا. فلا يهمنا ما إذا كانت الظواهر موجودة بالفعل في العالم أم لا، بل يهمنا كيف تُعطى للوعي. هذه الخطوة تمكّن الفيلسوف من التحرر من الافتراضات المسبقة للعلم أو الميتافيزيقا، والانغماس في التجربة كما هي معطاة.

القصدية كأساس للوعي

أخذ هوسرل عن أستاذه فرانز برينتانو مفهوم القصدية، وطوّره ليجعله محورًا رئيسيًا للظاهراتية. فكل وعي هو دائمًا وعي بشيء ما؛ أي أن الوعي لا يوجد في فراغ، بل يتجه نحو موضوع محدد. هذا الارتباط العضوي بين الذات والموضوع يجعل من تحليل الوعي تحليلًا لبنية العلاقة القصدية، أي العلاقة التي لا

يمكن فصلها بين الفاعل العارف والموضوع المعروف. ومن هنا، تصبح دراسة الوعي في الظاهراتية دراسة مزدوجة للذات ولما يظهر أمامها في آنٍ واحد.

الظاهراتية كمنهج وصفي

يصر هوسرل على أن الظاهراتية ليست نظرية ميتافيزيقية أو علمًا تجريبيًا، بل منهج وصفي. فهي لا تبحث في العلل أو الأسباب، بل في البنى التي تجعل التجربة ممكنة. ومن خلال هذا الوصف، يمكن الوصول إلى "ماهية" الظواهر، أي تلك الخصائص الجوهرية التي تُحدد طبيعتها. فعلى سبيل المثال، لا تدرس الظاهراتية كيف تنشأ تجربة الإدراك حسيًا أو فيزيولوجيًا، بل تركز على "كيف تُعطى" تجربة الإدراك في الوعي كظاهرة حية ومباشرة.

الوعي بوصفه مجالًا مطلقًا للمعنى

في النهاية، يذهب هوسرل إلى أن الوعي هو المجال المطلق الذي يُعطي المعنى للعالم. فالوجود بالنسبة إلينا ليس معطى في ذاته، بل كما يظهر في التجربة الواعية. ومن هنا، تصبح الظاهراتية منهجًا يعيد تأسيس العلاقة بين الإنسان والعالم على أساس التجربة الحية، لا على أساس الفرضيات النظرية. ولهذا السبب، عُدّت الظاهراتية الهوسرلية بداية ثورة فلسفية مهدت الطريق لتطورات لاحقة عند هايدغر، وسارتر، وميرلو-بونتي، الذين وسّعوا الظاهراتية من كونها منهجًا وصفيًا إلى أفق أنطولوجي ووجودي.

المبحث الثاني: المفاهيم الأساسية في الظاهراتية

أولًا: مفهوم القصدية ودوره في فهم الوعي

تحتل القصدية (Intentionalität) مكانة محورية في الظاهراتية، فهي المفهوم الذي أعاد إحياء النقاش حول طبيعة الوعي وأعطى لمشروع هوسرل أساسه الفلسفي المتين. وإذا كان الوعي في التقليد الفلسفي الكلاسيكي يُفهم غالبًا بوصفه "حالة داخلية" أو "ملَكة نفسية" مغلقة على ذاتها، فإن القصدية تعني على العكس من ذلك أنّ الوعي ليس شيئًا منعزلًا، بل هو دائمًا وعي بشيء ما. أي أن الوعي من طبيعته أن يتجه نحو موضوع، وأن يكون منفتحًا على ما هو خارج الذات.

الجذور الفلسفية للقصدية

ظهر مفهوم القصدية بصورة منهجية أولًا عند الفيلسوف النمساوي فرانز برينتانو، الذي أكد أنّ الخاصية الأساسية لكل ظاهرة نفسية هي أنها "تتضمن موضوعًا قصديًا"، أي شيئًا تدور حوله أو تتجه إليه. فالإحساس يتجه إلى موضوع محسوس، والذاكرة تتعلق بحدث ماضٍ، والرغبة تتجه إلى غاية أو موضوع مرغوب. وبذلك ميز برينتانو بين الظواهر النفسية، التي تتصف بالقصدية، والظواهر الفيزيائية التي تخلو من هذه الخاصية.

هوسرل تبنّى هذا المفهوم واعتبره المفتاح لفهم الوعي. فبدل النظر إلى الوعي كوعاء أو "مسرح داخلي" تُمثل فيه الأفكار، اعتبره حركة مقصودة نحو العالم، ومن ثمّ أصبح تحليل القصدية هو جوهر التحليل الظاهراتي.

البنية المزدوجة للقصدية

يؤكد هوسرل أن القصدية تنطوي على بنية مزدوجة:

القطب القصدي (noesis): ويشير إلى الفعل الواعي الذي تقوم به الذات (كالإدراك، التذكر، الرغبة).

الموضوع المقصود (noema): وهو المضمون الذي يتجه إليه الوعي كما يُعطى في الخبرة (الشيء المدرك أو المتذكر أو المرغوب).

هذا التمييز يتيح وصفًا أدق لعلاقة الوعي بموضوعه؛ فالوعي لا يُختزل في الفعل الذاتي، ولا ينفصل عن الموضوع الذي يتجه إليه. بل إنهما لحظتان متلازمتان في بنية واحدة.

القصدية وفهم طبيعة الوعي

القصدية تعني أن الوعي ليس "مغلقًا على ذاته"، وإنما منفتح دومًا على العالم. فالعالم لا يُعطى لنا من الخارج كمجموعة من الأشياء المستقلة، بل يُعاش ويُختبر من خلال أفعال الوعي. ومن هنا، يصبح الوعي ساحة للتلاقي بين الذات والموضوع، بحيث تُعاد صياغة معنى الوجود من خلال هذا التلاقي.

وهذا ما يفسر إصرار الظاهراتية على أن أي محاولة لفهم الوعي لا بد أن تمر عبر تحليل أفعاله القصدية، أي الطريقة التي يتجه بها نحو موضوعاته. فالإدراك الحسي مثلًا لا يمكن فهمه كاستقبال سلبي للمثيرات، بل يجب النظر إليه كعملية قصديّة يقوم فيها الوعي بتوجيه نفسه نحو "شيء مُعطى" في التجربة.

دور القصدية في تجاوز الثنائية التقليدية

من النتائج البارزة لمفهوم القصدية أنه ساعد هوسرل على تجاوز الثنائية التقليدية بين الذات والموضوع. فبدل أن يكون هناك "ذات عارفة" في مقابل "موضوع معروف"، يصبح الوعي فعلًا قصديًا يدمج الطرفين في علاقة متبادلة. أي أن الوعي لا يوجد دون موضوع، والموضوع لا يُعطى إلا عبر الوعي. بهذا المعنى، القصدية ليست فقط خاصية للوعي، بل هي بنية الوجود المعاش ذاته.

القصدية كأداة لفهم الوعي المعاصر

إلى جانب أهميتها في فلسفة هوسرل، أثرت القصدية في مسار الفلسفة اللاحقة. فقد استُخدم هذا المفهوم في الفلسفة التحليلية لفهم طبيعة الحالات الذهنية وعلاقتها بالمعنى والدلالة، كما شكّل أساسًا للتصورات المعاصرة للوعي في علم النفس الظاهراتي والعلوم المعرفية. والفضل في ذلك يعود إلى أن القصدية كشفت أن الوعي ليس مجرد حالة داخلية، بل هو انفتاح على العالم وتفاعل حي مع موضوعاته.

يمكن القول إن مفهوم القصدية مثّل الحجر الأساس للظاهراتية. فهي التي أعادت تعريف الوعي لا كحالة منفصلة، بل كحركة انفتاحية على العالم، وهو الذي مكّن هوسرل من صياغة منهج وصفي قادر على الإمساك بالبنى الأساسية للتجربة الإنسانية. بهذا المعنى، لم يكن القصد إلا الجسر الذي ربط بين الذات والوجود، وبين التجربة الفردية والمعنى الكوني.

ثانيًا: فكرة التجربة المعاشة وتأثيرها على التحليل الفلسفي

تُعدّ فكرة التجربة المعاشة (Erlebnis) من المفاهيم المحورية في الظاهراتية، إذ تمثل الإطار الذي من خلاله يتحدد موضوع الفلسفة عند هوسرل وتلامذته. فبدل أن تنشغل الفلسفة بمناقشة قضايا ميتافيزيقية مجردة أو بتقديم تفسيرات سببية للعالم الخارجي، دعت الظاهراتية إلى العودة إلى التجربة كما تُعاش في وعي الفرد، أي إلى الخبرة المباشرة قبل أن تتدخل فيها التأويلات النظرية أو التفسيرات العلمية.

معنى التجربة المعاشة

التجربة المعاشة عند هوسرل ليست مجرد "إحساسات" أو "انطباعات" عابرة، بل هي المجال الحي الذي تُعطى فيه الظواهر مباشرة للوعي. وهي تمثل الطابع الذاتي للتجربة، أي كيف تُختبر الأشياء من منظور الذات العارفة. فالذي يميزها عن "الوقائع الموضوعية" أنها ليست معطيات محايدة، وإنما خبرات تُعاش من الداخل وتشكل نسيج الحياة اليومية.

التجربة المعاشة في مواجهة النزعة الطبيعية

أراد هوسرل من خلال التركيز على التجربة المعاشة أن يتجاوز النزعة الطبيعية (Naturalism)، التي تفسر الوعي بالرجوع إلى قوانين فيزيولوجية أو نفسية تجريبية. فهذه النزعة، في نظره، تهمل الجانب الذاتي للتجربة، أي الكيفية التي يظهر بها العالم للوعي. إنّ اختزال التجربة في تفاعلات فيزيائية أو عمليات دماغية يطمس حقيقة أنها تُعاش بمعنى ذاتي، وهذا المعنى هو ما يشكل موضوع التحليل الظاهراتي.

الطابع البنائي للتجربة المعاشة

من أبرز ما كشفته الظاهراتية أن التجربة المعاشة ليست مجرد انعكاس سلبي للعالم الخارجي، بل هي فعل بنائي يشارك فيه الوعي بفاعلية. فالإدراك مثلًا لا يقتصر على استقبال صور حسية، وإنما ينطوي على تنظيم وتوجيه مقصود نحو الموضوع. كذلك، الذاكرة ليست مجرد استرجاع ميكانيكي للماضي، بل هي إعادة عيش للحدث في أفق الحاضر. وبهذا المعنى، تكشف التجربة المعاشة أن الوعي ليس سلبيًا بل فاعلًا في بناء المعنى.

أثر التجربة المعاشة في التحليل الفلسفي

إن التركيز على التجربة المعاشة أحدث تحولًا جوهريًا في طبيعة التحليل الفلسفي:

الانتقال من الميتافيزيقا إلى الوصف: بدل طرح أسئلة عن جوهر الوجود المجرد، انشغلت الظاهراتية بوصف كيف يظهر الوجود في الخبرة المعاشة.

إعادة الاعتبار للذات: لم تعد الذات مجرد عنصر ثانوي في المعرفة، بل صارت المجال الذي يتكشف فيه العالم.

فتح أفق جديد لفهم الوعي: إذ أصبح الوعي يُدرس من خلال أفعاله الحية، لا من خلال افتراضات نظرية عن طبيعته.

إنّ مفهوم التجربة المعاشة كشف أن الفلسفة لا يمكن أن تنطلق من مفاهيم مجردة أو من فرضيات علمية محضة، بل يجب أن تعود إلى الحياة كما تُعاش. ومن هنا جاء تأثيره العميق على التحليل الفلسفي، حيث أعاد توجيه الفلسفة نحو وصف الظواهر كما تُختبر ذاتيًا، الأمر الذي جعلها أكثر التصاقًا بالوجود الإنساني الحي.

ثالثا: التمييز بين الذات والموضوع في الفلسفة الظاهراتية

يُعدّ التمييز بين الذات والموضوع من القضايا المحورية في تاريخ الفلسفة، إذ شكّل منذ اليونان مرورًا بديكارت وكانط أساس النقاشات حول طبيعة المعرفة وإمكانها. غير أنّ الفلسفة الظاهراتية أعادت صياغة هذا التمييز من منظور جديد، بحيث لم تعد تنظر إليه كفصل حاد بين قطبين متعارضين، بل كعلاقة بنيوية متداخلة لا يُفهم أحد طرفيها إلا بالرجوع إلى الآخر.

يرى هوسرل أن الوعي من طبيعته أن يكون قصديًا، أي أنه دائمًا وعي بشيء ما. هذا المعنى يقتضي أن الذات لا يمكن أن تُفهم في عزلة عن موضوعها، كما أن الموضوع لا يُعطى إلا من خلال انفتاح الذات عليه. ومن هنا، لم تعد الذات "جوهرًا مفكرًا" منفصلًا عن العالم كما عند ديكارت، بل أصبحت هي المجال الذي يتكشف فيه العالم، أي الأفق الذي يظهر فيه الموضوع في خبرة مباشرة.

التمييز بين الذات والموضوع في الظاهراتية ليس إذًا انقسامًا أنطولوجيًا، بل هو لحظتان متلازمتان في بنية القصدية. فالذات تظهر من خلال أفعالها الواعية، والموضوع يظهر كما يُعاش في هذه الأفعال. بهذا المعنى، لا يمكن الحديث عن "موضوع" محايد مستقل تمامًا عن الذات، كما لا يمكن تصور ذات منغلقة على نفسها دون انفتاح على العالم.

وقد ساعد هذا التصور على تجاوز الثنائية التقليدية التي سيطرت على الفلسفة الحديثة، حيث لم يعد السؤال: "كيف يمكن للجسر أن يقوم بين الذات والموضوع؟"، بل أصبح: "كيف تتجلى الموضوعات في حقل الوعي الذاتي؟". ومن هنا جاء الطابع الوصفي للظاهراتية، الذي يسعى إلى تحليل كيفية ظهور الموضوعات في التجربة، بدلًا من افتراض وجودها المستقل أو اختزالها إلى مجرد حالات ذهنية.

إنّ هذا الفهم الجديد للعلاقة بين الذات والموضوع فتح آفاقًا واسعة أمام الفلسفة المعاصرة، سواء في الوجودية عند هايدغر وسارتر، أو في الفلسفة الإدراكية عند ميرلو-بونتي، حيث أصبح الإنسان يُفهم بوصفه كائنًا منغرسًا في العالم، لا كذات متعالية أو موضوع معزول. وهكذا، شكّل التمييز الظاهراتي بين الذات والموضوع خطوة نوعية في إعادة صياغة سؤال الوعي والمعرفة في القرن العشرين.

المبحث الثالث : تطور الظاهراتية في الفلسفة

اولا :مساهمات فلاسفة مثل مارتن هايدغر وموريس ميرلو- بونتي وجان بول سارتر في تطور الظاهراتية .

1. مارتن هايدغر: من الظاهراتية الوصفية إلى الأنطولوجيا الأساسية

يُعدّ مارتن هايدغر (1889–1976) من أبرز الفلاسفة الذين أعادوا صياغة الظاهراتية بعيدًا عن مشروعها الهوسرلي الخالص. ففي حين ركّز هوسرل على تحليل الوعي وبنيته القصدية، انتقد هايدغر هذا التركيز وعدّه استمرارًا للنزعة المثالية التي تفصل بين الوعي والعالم. بدلاً من ذلك، سعى إلى إعادة ربط الإنسان بالعالم في إطار أنطولوجي شامل. في عمله الأساسي الكينونة والزمان (Sein und Zeit, 1927) قدّم هايدغر مفهوماً جديداً هو الدازاين (Dasein)، الذي يُترجم عادة بـ "الكائن-هنا"، بوصفه الوجود الإنساني الذي يتميّز بقدرته على فهم وجوده الخاص.

تميّزت مقاربة هايدغر بانتقال الظاهراتية من مجرد منهج وصفي للوعي إلى ما أسماه "الأنطولوجيا الأساسية"، أي البحث في معنى الكينونة نفسها من خلال تحليل وجود الإنسان. وبذلك أصبح الاهتمام منصبًا على قضايا مثل: الزمانية، الوجود في العالم، القلق، والوجود نحو الموت. هذه التحولات جعلت من الظاهراتية أرضية خصبة لتشكّل الفلسفة الوجودية لاحقًا. وقد أتاح هايدغر بذلك تجاوز النزعة المعرفية عند هوسرل نحو رؤية جذرية لوجود الإنسان وعلاقته بالزمان والموت والممكنات .

٢. موريس ميرلو-بونتي: الجسد والإدراك كأفق للظاهراتية

جاء موريس ميرلو-بونتي (1908–1961) ليمنح الظاهراتية بُعدًا مغايرًا يتمحور حول الجسد والإدراك الحسي. ففي كتابه المهم فينومينولوجيا الإدراك (Phénoménologie de la perception، 1945)، عارض ميرلو-بونتي الثنائية الكلاسيكية بين الروح والجسد، وبيّن أن الجسد ليس مجرد موضوع مادي بين موضوعات العالم، بل هو الوسيط الأساسي الذي يجعل إدراك العالم ممكنًا.

من هذا المنطلق، اعتبر ميرلو-بونتي أن الوعي ليس كيانًا منفصلاً أو مجردًا، بل يتجسد دومًا عبر "الجسد الحيّ" (corps propre). فالجسد ليس شيئًا نملكه فحسب، بل هو الطريقة التي نكون بها في العالم. وعليه، فإن الإدراك الحسي لا يُختزل إلى استقبال سلبي للمؤثرات، بل هو انخراط نشط ووجودي في العالم. هذه الرؤية قادت إلى تجاوز النزعة المثالية عند هوسرل وكذلك الطابع الأنطولوجي المجرد عند هايدغر، نحو فلسفة تتأسس على التجربة المتجسدة والممارسة اليومية .

لقد كان لميرلو-بونتي أثرٌ واسع في الفلسفة الفرنسية المعاصرة، إذ مهّد لفلسفات الجسد والهوية والغيرية، كما ألهم تيارات لاحقة في علم النفس الإدراكي والأنثروبولوجيا. وبذلك وسّع أفق الظاهراتية لتشمل البعد الجسدي والعملي للتجربة الإنسانية.

٣. جان بول سارتر: الظاهراتية والحرية الوجودية

يحتل جان بول سارتر (1905–1980) موقعًا محوريًا في تطور الظاهراتية، حيث استلهم منهجها من هوسرل، واستفاد من تحولات هايدغر، لكنه أعاد توجيهها نحو مشروع وجودي يرتكز على الحرية والاختيار. في كتابه الوجود والعدم (L'Être et le néant، 1943)، قدّم سارتر تصورًا أصيلاً للوجود الإنساني يقوم على التمييز بين "الوجود في ذاته" (soi-en-être) الذي يخص الأشياء الجامدة، و"الوجود لذاته" (pour-soi-être) الذي يخص الإنسان بوصفه كائناً واعيًا يعي وجوده ويصنع معناه عبر أفعاله.

بالنسبة لسارتر، الإنسان ليس كائناً محدد الجوهر مسبقًا، بل هو مشروع حرّ يصوغ ذاته باستمرار من خلال اختياراته. وقد استند في هذا إلى الظاهراتية التي تكشف عن كيفية حضور العالم للوعي، لكنه أضاف إليها بُعد الحرية المطلقة وما يرافقها من مسؤولية وقلق وجودي. كما تناول علاقة الذات بالآخر، مبيّنًا كيف أنّ نظرة الآخر تكشف الذات لنفسها وتضعها في مواجهة الاغتراب والصراع.

وبهذا المعنى، تحوّلت الظاهراتية عند سارتر إلى فلسفة وجودية عملية تعالج قضايا الحرية، الغيرية، والالتزام الأخلاقي والسياسي. وقد جعل هذا من الظاهراتية إطارًا مركزيًا للفكر الوجودي في القرن العشرين، مؤثرًا ليس فقط في الفلسفة بل أيضًا في الأدب والسياسة والفن.

يتضح من خلال هذه المساهمات أنّ الظاهراتية لم تبقَ محصورة في المنهج الهوسرلي الوصفي، بل شهدت تحولات جوهرية بفضل جهود هايدغر، وميرلو-بونتي، وسارتر. فقد وجّهها هايدغر نحو الأنطولوجيا الأساسية وتحليل الوجود، بينما ركّز ميرلو-بونتي على الجسد والإدراك الحسي كتجربة متجسدة، في حين صاغ سارتر منها فلسفة حرية ومسؤولية وجودية. هذه التطورات مجتمعة جعلت من الظاهراتية أحد أهم التيارات الفلسفية في القرن العشرين، قادرة على مقاربة قضايا الإنسان في أبعادها الأنطولوجية والعملية والأخلاقية.

ثانيا : تحول الظاهراتية من منهج وصفي الى اداة لفهم الوجود .

نشأت الظاهراتية مع إدموند هوسرل كمنهج يهدف إلى الوصف الصارم للظواهر كما تُعطى للوعي، بعيدًا عن الافتراضات الميتافيزيقية أو التفسيرات العلمية. فقد أراد هوسرل أن يؤسس علمًا للفلسفة يوازي دقة الرياضيات، ينطلق من تحليل البنى الجوهرية للوعي في علاقته بالظواهر. كان هذا المنهج في بداياته ذا طابع ابستمولوجي ومعرفي بالدرجة الأولى، إذ ركز على الكشف عن كيفية حضور الموضوعات في التجربة المعاشة عبر القصدية والتجلي المباشر.

غير أنّ المسار الفكري للظاهراتية لم يتوقف عند هذا الحدّ، بل شهد تحولًا نوعيًا مع الجيل التالي من الفلاسفة الذين انطلقوا من هوسرل، ولكن وسّعوا أفق الظاهراتية لتصبح أداة لفهم الوجود الإنساني برمته. فقد رأى هؤلاء أن الاكتفاء بالوصف المحايد للخبرة لا يكفي، لأن الوعي لا يوجد في فراغ بل منغرس دائمًا في عالم، ومشدود إلى زمان ومكان، ومتجسد في وجود بشري ملموس.

يُعتبر هذا التحول بداية مع مارتن هايدغر، الذي انتقد اقتصار هوسرل على تحليل البنى المعرفية، مؤكّدًا أن السؤال الأعمق هو سؤال "الوجود". ففي كتابه الوجود والزمان (1927)، استخدم أدوات التحليل الظاهراتي، لكن بهدف الكشف عن معنى الكينونة من خلال تحليل "الدازاين" (الوجود-هنا) بوصفه الكائن الذي يفهم وجوده دائمًا في علاقة بالعالم. وهكذا تحولت الظاهراتية من مجرد وصف للوعي إلى أنطولوجيا أساسية تسعى لفهم شروط إمكان وجود الإنسان ذاته.

كما أسهم جان بول سارتر في هذا التحول عبر توظيف الظاهراتية في فلسفته الوجودية. ففي كتابه الوجود والعدم (1943)، اعتبر أنّ الوعي ليس مجرد مجال للخبرة الوصفية، بل هو حرية جذرية تتجاوز نفسها باستمرار نحو الإمكان. فالبنية القصدية التي أبرزها هوسرل تحولت عند سارتر إلى أساس لفهم الوجود

الإنساني الحر والمسؤول. وبهذا أصبحت الظاهراتية أداة لتوضيح طبيعة الحرية والاغتراب والوجود من أجل ذاته .

أما موريس ميرلو-بونتي، فقد أعاد صياغة الظاهراتية في اتجاه مختلف، حيث ركز على الجسد والإدراك الحسي. فالتجربة المعاشة لا تنفصل عنده عن كونها متجسدة؛ أي أن الوعي لا يُفهم إلا من خلال علاقة الجسد بالعالم. لقد جعل من الظاهراتية أداة لفهم العلاقة بين الإنسان والعالم المعيش، حيث يتداخل الذاتي والموضوعي بشكل لا يقبل الفصل. وهكذا تجاوز البعد المعرفي ليصبح منظورًا أنطولوجيًا يوضح كيفية انغراس الإنسان في الوجود.

يمكن القول إنّ هذا التحول يعكس انتقال الظاهراتية من مستوى إبستمولوجي وصفي إلى مستوى أنطولوجي وجودي. فلم تعد غايتها مجرد تحليل كيف تُعطى الظواهر للوعي، بل أصبحت تسعى لفهم المعنى الأعمق للوجود الإنساني في علاقته بالزمن، بالموت، بالحرية، وبالعالم المعاش. لقد تحولت من منهج محايد إلى أفق فلسفي مفتوح يوجه العديد من المدارس الفكرية في القرن العشرين، مثل الوجودية، الفلسفة التأويلية، والأنثروبولوجيا الفلسفية.

وهكذا، فإنّ الظاهراتية لم تفقد طابعها الأصلي كتحليل للتجربة، لكنها لم تعد مقصورة على الوصف المحايد، بل غدت أداة للكشف عن حقيقة الوجود الإنساني ومعناه. وهذا التحول هو الذي جعلها من أكثر التيارات الفلسفية تأثيرًا في الفلسفة المعاصرة.

المبحث الرابع :اولا: امتداد الظاهراتية في الدراسات الفلسفية للوعي .

لم يكن تأثير الظاهراتية محصورًا في نطاق الفلسفة القارية الأوروبية أو في الإطار الوجودي الذي تجسّد مع هايدغر، ميرلو-بونتي وسارتر، بل امتد ليشكّل أحد أبرز المداخل لدراسة الوعي في الفلسفة المعاصرة. فقد أمدّت الظاهراتية الحقول الفكرية المختلفة بأدوات منهجية ومفاهيمية جديدة، سمحت بتجاوز الرؤية الاختزالية التي سادت في القرن التاسع عشر، والتي كانت تميل إلى تفسير الوعي بوصفه نتاجًا فيزيولوجيًا أو نفسياً محضًا. وعلى خلاف ذلك، أبرزت الظاهراتية أنّ الوعي ليس مجرد وظيفة من وظائف الدماغ، بل هو بنية قصدية تنفتح دومًا على العالم، وتمنح الظواهر معناها من خلال التجربة المعيشة.

لقد كان لهذا المنظور أثر حاسم في النقاشات الفلسفية حول طبيعة الوعي في القرن العشرين وما بعده. فقد وفّر المشروع الهوسرلي، على الرغم من طابعه الوصفي، أساسًا لإعادة الاعتبار إلى الخبرة الذاتية كمعطى لا يمكن الاستغناء عنه في أي تحليل فلسفي للذهن. وقد التقط العديد من الفلاسفة هذه الفكرة لتأكيد أن أي نظرية عن الوعي لا بد أن تراعي بعدين متكاملين: البعد الأول يتمثل في الطابع الذاتي أو الكيفي للتجربة (ما يسميه توماس نيغل لاحقًا "ما يعنيه أن يكون المرء شيئًا ما")، والبعد الثاني في العلاقة القصدية التي تربط الوعي بالعالم المحيط.

ولعل ما يميز امتداد الظاهراتية في الدراسات الفلسفية للوعي هو أنّها لم تقتصر على إعادة صياغة المفاهيم، بل أثّرت أيضًا في المناهج. ففي مقابل النزعة السلوكية التي سادت منتصف القرن العشرين، والتي أنكرت مشروعية الحديث عن الوعي الذاتي، شكّلت الظاهراتية أحد أبرز المداخل التي دفعت إلى العودة للاعتراف بالخبرة المعاشة كموضوع للدراسة الفلسفية. هذا ما نجده مثلاً في أعمال الفلاسفة المعاصرين مثل موريس ناتانسون ودان زهافي، حيث سعوا إلى إظهار أنّ الظاهراتية ليست مجرد تيار تاريخي، بل إطار منهجي يسمح بدراسة بنية الوعي من الداخل، مع ربطها بالعلوم المعرفية والبحوث العصبية الحديثة .

كما أنّ تأثير الظاهراتية في فلسفة الوعي تجلّى في ميدان النقاشات المعاصرة حول "الوعي الظاهراتي" (phenomenal consciousness) و"الوعي الوصولي" (access consciousness). فقد أكد العديد من الفلاسفة أنّ الظاهراتية تمنحنا أدوات لفهم طبيعة الخبرة الكيفية التي لا تختزل في المعالجة المعلوماتية أو الوظائف العصبية. ومن ثمّ أصبح التمييز بين "الوصف من الداخل" الذي تدعو إليه الظاهراتية و"التفسير من الخارج" الذي يقدمه العلم التجريبي أحد محاور الجدل الفلسفي الراهن.

إضافة إلى ذلك، سمحت الظاهراتية بتطوير مقاربات جديدة في فلسفة العقل، مثل ما يُعرف بـ الفينومينولوجيا الطبيعية (phenomenology naturalized)، التي تسعى إلى الجمع بين التحليل الظاهراتي والخلفية العلمية في علم الأعصاب وعلم النفس الإدراكي. وقد حاولت هذه المقاربة أن تبين أنّ المنهج الظاهراتي لا يقف بالضرورة على طرف نقيض من العلوم الطبيعية، بل يمكن أن يشكّل مكملًا لها عبر توفير وصف دقيق للتجربة المعيشة، وهو ما يساعد في بناء نظريات أكثر تكاملًا عن الوعي .

وعلى هذا الأساس، يمكن القول إن امتداد الظاهراتية في الدراسات الفلسفية للوعي يعبّر عن انتقالها من إطارها الأوروبي الأصلي إلى فضاء عالمي متعدد الأبعاد. فهي من جهة وفّرت للفلسفة المعاصرة أدوات لفهم البنية الذاتية للوعي والتمييز بين مستوياته المختلفة، ومن جهة أخرى ساهمت في بناء جسور مع العلوم المعرفية الحديثة. وبذلك لم تعد الظاهراتية مجرد لحظة تاريخية في الفكر الفلسفي، بل غدت جزءًا من الحوارات المفتوحة حول أحد أعقد ألغاز الفلسفة والعلم، وهو لغز الوعي الإنساني.

ثانيا : الظاهراتية والمشكلة الصعبة

تُعد المشكلة الصعبة للوعي، كما صاغها الفيلسوف الأمريكي ديفيد تشالمرز (Chalmers David)، واحدة من أبرز التحديات الفلسفية في دراسة العقل. وهي تتمثل في السؤال: كيف ولماذا تنشأ الخبرة الذاتية الكيفية (qualia) من العمليات العصبية المادية؟ فبينما استطاعت العلوم المعرفية وعلم الأعصاب أن تفسر "المشكلات السهلة" المتعلقة بكيفية معالجة الدماغ للمعلومات أو كيفية صدور السلوك، إلا أنّها عجزت عن تفسير الطابع الذاتي للتجربة: أي "ما الذي يعنيه أن تكون كائناً واعياً".

من هنا برزت الظاهراتية كأحد أهم المداخل الفلسفية التي حاولت مقاربة هذه المشكلة. إذ تؤكد الظاهراتية منذ هوسرل أنّ الوعي لا يمكن اختزاله في تفسيرات موضوعية أو فيزيولوجية فحسب، بل يجب الانطلاق من الخبرة المعاشة كمعطى أولي وأساسي. فالظاهراتية لا تبحث في الآليات العصبية التي تُنتج الوعي، وإنما تركز على بنية التجربة ذاتها: كيف تُعطى الظواهر للذات، وكيف تنبني العلاقة القصدية التي تربط الوعي بالعالم.

هذا التوجه يجعل الظاهراتية في موقع مختلف عن الطروحات الاختزالية. فهي ترى أنّ أي محاولة لتجاوز "المشكلة الصعبة" تستوجب الاعتراف بأن الوعي ليس مجرد وظيفة مادية، بل هو بنية قصدية وكيفية لا يمكن إنكارها أو إقصاؤها من التحليل. وقد أثّر هذا الموقف بشكل مباشر في النقاشات المعاصرة، حيث اعتمد العديد من الفلاسفة (مثل توماس نيغل، ودان زهافي) على الأفكار الظاهراتية لتوضيح أنّ "التجربة من الداخل" لا يمكن إلغاؤها لصالح منظور علمي صرف.

ومع ذلك، تثير الظاهراتية إشكالية أخرى: فهي تقدم وصفًا عميقًا للتجربة المعاشة، لكنها لا تزودنا بحل سببي مباشر للمشكلة الصعبة. فهي توضح ما هو الوعي وكيف يظهر لنا، لكنها لا تفسر لماذا وكيف تنشأ الخبرة الذاتية من المادة العصبية. من هنا ظهرت مقاربات معاصرة تحاول الجمع بين الظاهراتية والعلوم العصبية فيما يُعرف بـ الفينومينولوجيا الطبيعية (phenomenology naturalized)، التي تسعى لربط الوصف الظاهراتي بالتفسيرات العلمية، على أمل بناء جسر يضيء جوانب "المعضلة الصعبة".

إذن، يمكن القول إن مساهمة الظاهراتية في معالجة المشكلة الصعبة للوعي تكمن في أنها تعيد الاعتبار إلى البعد الذاتي للتجربة، وتضعه في قلب النقاش الفلسفي، مؤكدة أن أي مقاربة للوعي تُهمل هذا البعد ستظل قاصرة. لكنها، في الوقت ذاته، تترك الباب مفتوحًا أمام العلوم الطبيعية لإيجاد التفسيرات المكملة، دون أن تفقد الفلسفة حقها في تحليل التجربة كما تُعطى للذات.

ثالثا: الظاهراتية في تحليل طبيعة الوعي والادراك .

منذ نشأتها مع إدموند هوسرل، وضعت الظاهراتية الوعي في مركز اهتمامها الفلسفي، معتبرةً إياه الشرط الأساسي لإمكان كل معرفة. فقد انطلقت من مبدأ أنّ أي تحليل فلسفي أو علمي لا بد أن يأخذ الوعي بوصفه مجالاً أولياً للمعنى. وعليه، لم تتعامل الظاهراتية مع الوعي كشيء يمكن تفسيره من الخارج عبر قوانين طبيعية فحسب، بل نظرت إليه كبنية قصدية تنفتح على العالم وتكشفه في صوره المختلفة.

إن القصدية (Intentionality) تمثل المفهوم المحوري في هذا السياق، حيث يعني أن الوعي ليس كياناً منغلقاً على ذاته، وإنما هو دائماً "وعي بشيء". وبذلك، يصبح الإدراك في المنظور الظاهراتي ليس عملية استقبال سلبية للمعطيات الحسية، بل هو فعل قصدي ينظم التجربة ويعطيها معناها. فالظاهراتية تُظهر أن الإدراك ليس مجرد نسخ للواقع الخارجي، بل هو تشكيل لمعنى يتوسط بين الذات والعالم.

كما يركز التحليل الظاهراتي على الخبرة المعيشة (experience lived)، أي الطريقة التي يظهر بها العالم للذات في تجربتها المباشرة. ومن هنا ميّزت الظاهراتية بين مستوى أولي للوعي، حيث يُعاش العالم كما يُعطى، ومستوى انعكاسي لاحق، حيث تُفكَّر هذه التجربة وتُحلَّل. هذا التمييز سمح بفهم أعمق لطبيعة الإدراك، باعتباره خبرة أولية تُعاش قبل أن تصبح موضوعاً للعلم أو الفلسفة.

وقد وسّعت الظاهراتية هذا الفهم لتُظهر أن الإدراك ليس فقط وظيفة ذهنية أو حسية، بل هو نشاط يتجسد في علاقة الجسد بالعالم. فالجسد بالنسبة للظاهراتية ليس موضوعاً مادياً وحسب، بل هو وسيلة للوجود في العالم، ومن خلاله تنشأ إمكانات الإدراك والفعل. هذا ما جعل الظاهراتية تلهم لاحقاً أبحاثاً في مجالات مثل علم النفس الإدراكي، والعلوم العصبية، والذكاء الاصطناعي، حيث اعتُمدت فكرة أن الإدراك متجسد (embodied cognition) وغير منفصل عن الخبرة المعاشة.

إن أهمية الظاهراتية تكمن في أنها أعادت الاعتبار للطابع الذاتي والكيفي للوعي، دون أن تنفي إمكانية الربط مع التفسيرات العلمية. فهي وضعت الأساس لفهم الإدراك باعتباره ظاهرة متعددة المستويات: فهو في آنٍ واحد خبرة ذاتية، وبنية قصدية، وعلاقة جسدية بالعالم. وبهذا المعنى، أسهمت الظاهراتية في تجاوز الرؤية الاختزالية التي حصرت الوعي في آليات فيزيولوجية، لتقدم بديلاً فلسفياً يُبرز ثراء التجربة الإنسانية في أبعادها المختلفة.

رابعا : حدود المنهج الظاهراتي في تفسير الوعي :
على الرغم من الإسهامات الكبيرة التي قدّمها المنهج الظاهراتي في دراسة الوعي، خصوصًا بإبرازه لبنية القصدية وفكرة التجربة المعاشة، إلا أنّ هذا المنهج يواجه حدودًا واضحة عند محاولة تفسير طبيعة الوعي تفسيرًا شاملاً. فالمقاربة الظاهراتية تركز بشكل أساسي على الوصف الداخلي للخبرة الذاتية، متجنبةً الدخول في تفسيرات سببية أو أنطولوجية تتعلق بأصل الوعي أو بنيته المادية.

أول هذه الحدود يتجلى في موقف الظاهراتية من العالم الطبيعي. فحين يقوم هوسرل بـ "الإبوخي" أو تعليق الحكم على وجود العالم الخارجي، فإنه يعلّق أيضًا الأسئلة المتعلقة بكيفية نشوء العمليات الذهنية في الدماغ أو ارتباطها بالبنى الفيزيولوجية. هذا الإجراء يسمح بدراسة الوعي كما يظهر، لكنه لا يقدّم تفسيرًا علميًا حول آلية عمله أو شروطه المادية

ثانيًا، يواجه المنهج الظاهراتي صعوبة في التعامل مع البعد اللاواعي للتجربة الإنسانية. فبينما تركز الظاهراتية على ما يُعاش ويُعطى مباشرة في الخبرة الواعية، فإن مدارس أخرى مثل التحليل النفسي تبرز

أهمية الدوافع اللاواعية في تشكيل السلوك. من هنا، يُؤخذ على الظاهراتية أنها قد تُغفل مستويات من الحياة النفسية لا تتجلى في الخبرة المعاشة بشكل مباشر.
ثالثًا، إن الطابع الوصفي للظاهراتية يجعلها غير قادرة على تقديم تفسيرات سببية بالمعنى العلمي. فهي لا تُعنى بالإجابة عن "لماذا" يحدث الوعي، بل "كيف" يُعاش ويُختبر. وهذا ما جعلها أداة مكملة للعلوم العصبية وعلم النفس، لكنها غير كافية بذاتها لتفسير الظاهرة العقلية بشكل كامل.

وأخيرًا، ثمة حدود تتعلق بمدى إمكان الوصول إلى خبرة الآخر. فبينما تنجح الظاهراتية في تحليل التجربة الذاتية المباشرة، فإنها تواجه إشكالية عندما تحاول فهم وعي الآخرين، حيث لا يمكن الوصول إليه إلا عبر الاستدلال أو التعاطف. وقد دفع هذا بعض الفلاسفة، مثل ميرلو-بونتي وزهافي، إلى تطوير "الظاهراتية بين الذاتية" بوصفها امتدادًا لتجاوز هذه الصعوبة.

رغم هذه الحدود، تبقى الظاهراتية مساهمة أساسية في دراسة الوعي، إذ وضعت إطارًا فلسفيًا لفهم بنيته القصدية وتجلياته المعاشة. لكنها بحاجة إلى التكامل مع مناهج أخرى، سواء في الفلسفة التحليلية أو في علوم الإدراك الحديثة، من أجل الوصول إلى تفسير أكثر شمولًا لطبيعة الوعي.

قائمة المصادر والمراجع :

1. عبد الغفار مكاوي، الظاهراتية والفلسفة المعاصرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993.
2. هاشم صالح، الظاهراتية والفلسفة الوجودية. دار الطليعة، بيروت، 1982.
3. موريس ميرلو-بونتي، فينومينولوجيا الإدراك. ترجمة نظير جاهل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2006.
4. مارتن هايدغر، الكينونة والزمان. ترجمة فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2012.
.5 Sartre, Jean-Paul. Being and Nothingness. Trans. Hazel E. Barnes, Routledge, 1956 (طبعة حديثة 2018).
.6 Brentano, Franz. Psychology from an Empirical Standpoint. Routledge, 1995 .
.7Chalmers, David. The Conscious Mind. Oxford University Press, 1996 .
.8 Cooper, David E. (ed.). Existentialism: A Reconstruction. Blackwell, 1990 .
.9 Descartes, René. Meditations on First Philosophy. Cambridge University Press, 1996 .
.10Gallagher, Shaun. How the Body Shapes the Mind. Oxford University Press, 2005 .
.11Gallagher, Shaun & Zahavi, Dan. The Phenomenological Mind. Routledge, 2012 .
.12Hegel, G.W.F. Phenomenology of Spirit. Oxford University Press, 1977 .
.13Heidegger, Martin. Sein und Zeit. Tübingen: Niemeyer, 1927 .
.14Husserl, Edmund. Ideas Pertaining to a Pure Phenomenology and to a Phenomenological Philosophy. Springer, 1982 .
.15Husserl, Edmund. Logical Investigations. Routledge, 2001 .
.16 Husserl, Edmund. Philosophy as Rigorous Science. Northwestern University Press, 1965 .
.17Kant, Immanuel. Critique of Pure Reason. Cambridge University Press, 1998 .

.18 Merleau-Ponty, Maurice. Phenomenology of Perception. Trans. Colin Smith. Routledge, 2002 .
.19 Merleau-Ponty, Maurice .Phénoménologie de la perception .Paris: Gallimard, 1945 .
.20 Moran, Dermot. Introduction to Phenomenology. Routledge, 2000 .
.21 Nagel, Thomas. What Is It Like to Be a Bat ؟The Philosophical Review, 1974 .
.22 Ricoeur ،Paul. Freud and Philosophy: An Essay on Interpretation. Yale University Press, 1970 .
.23 Sartre, Jean-Paul .L'Être et le néant .Paris: Gallimard, 1943 .
.24 Zahavi, Dan. Husserl's Phenomenology. Stanford University Press, 2003 .
.25 Zahavi, Dan. Phenomenology of Consciousness. Routledge, 2005 .
.26 Zahavi, Dan. Phenomenology of Self-Awareness. Springer, 1999 .
.27 Zahavi, Dan. Phenomenology of Self and Other: The Study of the Structures of Subjectivity. Northwestern University Press, 2014 .
.28 Zahavi, Dan. Self and Other: Exploring Subjectivity, Empathy, and Shame. Oxford University Press, 2014 .
.29 Zahavi, Dan. Phenomenology: The Basics. Routledge, 2019